لماذا يغرّد الطير

أللطرب ام المزاوجة ام للتخاطب ؟

في حياة الطير نواح متعدّدة تستوقف العناية [1] ولكن التغريد اشهرها واعمّها . فقد يكون بين قرّاء هذه الصفحات من لا يميّز نوعاً من نوع من الطير ، ولكن يندر ان يكون بينهم من لا يطربهُ تغريد البلبل والكنار والحسّون والقبرة . ودواوين الشعراء حافلة بوصفه وبأثره في نفوس الشعراء . وهذه العناية بالتغريد حملت علماء الطير على البحث في سببه . فاصبحوا في شغل عن الطرب بما هم فيه من البحث . ولكنهم على كل حال يكرون بوجه عام ان الطير يغرّد طرباً لان ذلك الرأي القديم في نظرهم ليس رأياً علميًّا

ان العلماء الذين عنوا بهذه الناحية من حياة الطير ، فريقان . فريق يقيم رأيهُ على اساس مادي ، والآخر يقيمها على اساس غير مادي . والرأي الغالب الآن هو الرأي الاحيائي (البيولوجي) وزعيمهُ ، المستر نكولسون E. M. Nicholson . ان اصحاب هذا الرأي يقولون ان سلسلة الالحان التي يميّزها علماء الطير سواء أبسيطة كانت ام مركبة ، يستعملها الذكر في فصل المزاوجة اعراباً عن استقلاله وسيادته في المنطقة التي نزل فيها . وانهُ لا يغرّد خارج تلك المنطقة . فاذا فعل لم يكن ذلك تغريداً حقيقيًّا بل شبيهاً به sub-song ثم ان للتغريد سوّغات بيولوجية علاوة على ما تقدم . فهو في مذهبهم وسيلة يسترعي بها الذكر الانثى الهائمة في الربيع وعندهم ان الذكور تصل اولاً الى المنطقة الجديدة ، تتنزل فيها ، ثم تتبعها الاناث غير المزوجة . ولما كان معظم الطيور المغرّدة صغير الحجم ، لا يمتاز ريشها في الالوان بتعددها ، فالتغريد وسيلةٌ لاتمام المزاوجة بتوجيه عناية الاناث اليه . ثم ان التغريد رسالة تحذير يوجهها الذكر الى غيره من الذكور ان لا يعتدوا على المنطقة الخاصة به . فاذا لم يغرّد فقد يقصى عن منطقته وقد لا يجد زوجاً . فالتغريد في رأيهم ليس اعراباً عن شعور ، وانما هو ضرورة بيولوجية

هذا هو الرأي البيولوجي في تفسير تغريد الطير مجملاً . ولكن عند التدقيق فيه ، يجد الباحث

---

(١) راجع « عقل الطير » مقتطف يونيو ١٩٢٣ صفحة ١

خطأين اولها ان التغريد لا يقتصر على فصل المزاوجة ولا ينحصر فيه . وقول المستر اليوت هوارد Eliot Howard ان التغريد محصور في فصل واحد من فصول السنة وهو فصل التوليد مردودٌ بالمشاهدة . فليس في السنة فصل واحد لا تفيض به طير الطير بالنشيد . فان الحنّاء Robin (معجم الحيوان عن الفزويني) والسمّوّة Wren (معجم الحيوان ويعرف في الشام باسم مكسوكة ونمنمة ودعويقة) والسنة تغرّد في غير فصل التوليد . وقد ردّ اصحاب المذهب المتقدم هذا الاعتراض بقولهم ان هذه الطيور التي تغرّد في غير فصل المزاوجة ، تحتلّ ارضاً خاصة بها على مدار السنة . ثم هناك خطأ آخر . فقولهم ان تغريد الذكر يجذب الانثى التابعة اليه يعني ان الانثى تتجه الى اطرب الطيور تغريداً وهذا مردود بقول اليوت هوارد نفسه اذ اثبت فساده في ما يتعلق بضربين من الطير من نوع الدُرّسة Bunting المعروف بمصر باسم « الصعو » مع ان الصعو كما تقدّم يقابل (Wren) (راجع معجم الحيوان مادة Bunting)

وعلى الرغم من هذين الاعتراضين على الرأي المتقدم لا يزال هذا الرأي قائماً . ولكن كلما أمعن الباحث تدقيقاً فيه تبين انهُ غير دقيق وغير شامل . فقولهم ان تغريد الذكر اعراب عن سيادته في منطقته وتحذير موجه الى منافسيه مردودٌ بما يشاهد في اثناء الربيع من القتال الكثير بين الذكور . راقب الذكر وهو يغرّد . قد تحسّ انهُ يعرب في تغريده عن استقلاله وسيادته ، ولكنك قلما تقتنع ، وأنت تشاهدهُ مستغرقاً جسماً وعقلاً وروحاً في التغريد انهُ مهتمٌ بغيره قصد تحذيره . وقد قال الاستاذ فيزي فتز جيرالد في مجلة الكوتمبوردري — وعنهُ نلخص — انهُ كثيراً ما راقب الدُخلة او المهازجة اثناء التغريد ، فعجز عن اقناع نفسه بأن فيه تحذيراً وانذاراً لسائر الهوازج

ولو كانت الذكور لا تغرّد خارج المناطق الخاصة بها لكان الباحث مضطرّاً ان يسلم بهذا الرأي . ولكنها تغرد أينما تكون . ففي الربيع تغرّد الهوازج القواطع في اماكن لا تنوي مطلقاً ان تبني فيها عشاشها . وقد كان للاستاذ فيزي فتز جيرالد حديقة ، في منطقة تجتازها هذه القواطع ، فكان يسمع في الربيع تغريدها مع انها لم تكن معششة فيها ولا في جوارها . بل ان الشجرة الواحدة كانت بمنزلة منبر تشدو من فوقه ستة أنواع او اكثر . ثم كان يبحث عنها في اليوم التالي فلا يقف لها على أثر ، ثم يسمعها شادية ، عند عودتها قاطنةً في الخريف . فليس ثمة صلة بين الشدو والمنطقة . نعم ان هذه الطيور قلما تشدو كثيراً خارج منطقتها ، بعد ان تتوطنها . ومع ذلك فكثير من الباحثين غير مقتنع بأن هناك صلة بين الشدو والمنطقة في عقل الطير في حالة التوطن منها . والامثلة على ما تقدم كثيرة . اما المستر نكولسون فيزعم ان هذا الشدو خارج المنطقة ليس شدواً صحيحاً وانما هو شيءٌ به ويطلق عليه اسم (sub-song) أي انهُ

اصوات لم تسمُ الى مستوى الشدو او التغريد . فيردُّ عليهِ فيزي فتز جيرالد بأنهُ جهد نفسهُ في التفريق والتمييز بين التغريد في المنطقة المستوطنة والتغريد خارجها فلم يتبين اقل فرق

اما التوسل بالتغريد لجذب الاناث فقائم على الرأي القديم بأن الطيور الزاهية الالوان قلما تجيد التغريد . وان الطيور المتوسطة الحجم قلما تحسب في عداد الطيور المغرِّدة . ويذهب نكولسون الى القول بان الطيور التي لا تعيش في جماعات ، تحتاج الى قدرة التغريد ، لتعاض بها من خفائها الناشيء عن صغر حجمها او عدم ازدهائها . ففي فصل المزاوجة — على رأيهِ — يحتاج الذكر الى ما يمكنهُ من اعلان وجوده ورغبة منهُ في جذب الانثى اليهِ وكذلك في ابتعاد المتدين عن منطقته لكي يكفل ارضاً تحتوي ما تحتاج اليهِ صغارهُ من الغذاء . فاذا كان صغير الحجم او قليل اللون كان لا بدَّ لهُ من الاعتماد على الصوت وإن لم يكن ذلك الصوت تغريداً دائماً

وفي الردّ على هذا يقول الاستاذ فيزي فتز جيرالد انهُ قد يكون التغريد في بعض انواع الطير وسيلة لاجتذاب الاناث ، مع انهُ ينكر صدق ذلك على اي نوع . ويستشهد بقدرة طيور غير غريدة على الفوز باناثها . ولكنهُ يسلم جدلاً بان التغريد قد يكون لهُ هذا الغرض في بعض الانواع ثم ينكر ان البحث عن الزوج هو القصد الاول او الوظيفة الرئيسية المقصودة بالتغريد . وقد أقام الدليل على ذلك بالاشارة الى طائر يعرف باسم خاطف الذباب fly-catcher (معجم الحيوان عن احد فارس شوروب وهي عامية في مصر عن حلمي السمّاع وبربانة عامية في لبنان) . فالارقط منهُ يستوقف النظر بريشهِ وطبائعهِ ومع ذلك يتصف بتغريد شجيّ . والظالم او الصنج chaffinch (معجم الحيوان الاولى عامية في الاسكندرية عن حلمي السمّاع والثانية عامية في لبنان عن بوست) حسن الصوت ويستوقف النظر بشكلهِ في آن واحد . وكذلك الصفارية Golden Oriole (معجم الحيوان) يستوقف النظر بلونهِ الاصفر وصوتهِ الحسن

وهناك فريق ثان يذهب مذهباً آخر في تفسير تغريد الطير . وزعيمهُ المستر رتشموند (W. K. Richmond) وهو يستمدُّ اساس رأيهِ من المذهب البيولوجي ، فيقول : لما كان معظم الطيور يغرِّد في فصل المزاوجة فيصحُّ القول بان التغريد كان اصلاً مرتبطاً بالمزاوجة . ويمكن التسليم كذلك من الناحية الطبية ، بان ازدياد التغريد في الربيع مرتبط بنمو الاعضاء الجنسية في الذكر وان خفوتهُ مرتبط بضمورها . ومن الصحيح ايضاً ان الطيور تغرِّد عندما يكون نشاطها على اشدّهِ ، فاذا اتجه النشاط الى اعمال أخرى كتغذية الصغار او تبديل الريش قلَّ التغريد . ثم هناك عامل آخر وهو توافر الاحوال المؤاتية . فاذا حرم الطير الطعام او هبطت الحرارة فجأة أثَّر ذلك في تغريدها فاذا استمرّت الاحوال غير المؤاتية انقطع التغريد ، ولكن حماسة الطيور المغرِّدة في الربيع تتغلَّب على احوال الجوّ ، وكثيراً ما سمعت أبا قلنسوة (الحوري والشمّاس ذكرهُ واثناء

في لبنان عن معجم الحيوان) والموازج وهي تغرّد بغير انقطاع عندما كان الثلج يغطي الارض

ثم ان رتشموند لا ينكر التغريد على الطيطوى Sand-piper (معجم الحيوان عن ترجمة كلية ودمنة لفوكنر) والزرزور Starling لانهُ يعلم ان لتغريد الطيور نواحي متعددة . وقد ضرب المثل على ذلك بطائر الحمراء Redstart فقال في وصفه ما يلي : لقد شاهدت حمراء وهو ينشدو شدواً كله قوة وكبر ... وكانت كل حركة من حركات الطائر وكل نغمة من نغمات شدوه تدل على طبع عنيف وغد . ولكنني رأيت نفس الطائر بعد الظهيرة وهو اهدأ بالاً مما كان في الصباح وكان يهزج هزجاً رقيقاً يدل على رضائه وفتائه في هزجه . ثم يقول ان الطيور تغرّد عندما تصاب بأذى او حتى عندما تكون على وشك الموت . ومن هذا يخرج رتشموند الى ان التغريد في الطيور اعراب واتها تغرد لا لانها مدفوعة اليه بحاجة قاسرة يفرضها عليها الانتخاب الطبيعي ، بل لان التغريد منفذ لنشاطها الفائض «فهي اما ان تغني واما ان تنفجر» . والتغريد في رأي رتشموند هو الاعراب الانفعالي عن حياة الطير

قد يكون هذا الرأي في هذه الايام ، ايام التفسيرات العلمية والشبيهة بالعلمية ، غير مقبول لانهُ غير علميّ . ولكن من الخطل ان نتجاهلهُ لكونهِ غير مفرغ في قالب علمي . فالستر رتشموند باحث محقق دقيق الملاحظة . وهو اقرب في نظر نيزي فنجيرالد الى الحقيقة من اصحاب الرأي الجبراني القائم على ان التغريد اعلان الطائر استقلالهُ في منطقتهِ وتحذيره غيره من تعدي حدودها . ولا يبعد ان يكون رأيهُ الحقيقة كلها

وماذا نعني بتغريد الطير ؟ السنة تغرّد والغراب ينعق . ومع ذلك فللغراب لهاة مرتقية التركيب ومدى من الاصوات اذا شبهناها بألفاظ الانسان قلنا ان ثروتهُ اللفظية واسعة . والظاهر اننا نقصد بالتغريد تلك الاصوات التي تقع وقعاً مطرباً على آذاننا . بل ان اصحاب الرأي الجبراني ، يذكرون ان الطيور تغرد خارج منطقتها الخاصة بها . وما يصدر منها من الانغام خارج هذه المنطقة ، يوصف بأنه شبيه بالتغريد . فاذا كانت اصواتها غير منغمة تجاهلوها اطلاقاً . ولكن هذا التعريف الضيق لا يتسع لكثير من الاصوات التي وصفها هندي Hendy بأنها « كلام الطيور »

اذاً ما تغريد الطيور ؟ لا بد من القول بأن تغريد الطير ليس مسألة واحدة بل مسائل متعددة . ويمكن ان نقسمها ثلاثة اقسام تدور حول اصل التغريد ، ونموّه ووظيفته . وكلٌّ منها مسألة قائمة بذاتها . ثم ان موريس Morris يعد في كتابه عن « التغريد » الى تقسيمه بحسب الفصول ويعد منها تغريد الربيع والخريف والشتاء . ولكن التمييز بين ألوان التغريد الخاصة بهذه الفصول شاق او متعذر . ومع ذلك يمكن ان يتمادى الباحث في تصنيف التغريد ، فيميز بين التغريد قبل المزاوجة والتغريد الذي يقصد منهُ اطراب الانثى وهي حاضنة البيض . وهذا يدلك على سعة الموضوع

لا ريب في ان للنزعة الجنسية في الطير تأثيراً كبيراً في تغريده ولكن من الخطل الذهاب الى ان تغريد الطير ليس الاّ اسلوباً من اساليب التحدث الجنسي . لان الحقائق تدل على ان التغريد أبعد مدى من مجرد الاعراب الجنسي . وعلماء الطيور يعرفون طائفة كبيرة من الطيور تجيد التغريد بعد ان تقضي فيها الشهوة الجنسية

ان التغريد الذي نشأ اصلاً للاعراب عن الرغبة الجنسية قد تطوّر حتى اصبح لغة او وسيلة للتخاطب. ولا بدّ لنا اذا شئنا ان نفهم تغريد الطير من ان ندرك ان ما نطلق عليه وصف «التغريد» او «الشدو» هو في الواقع لغة الطير ، ولغة نواحٍ متعددة ، بتعدّد النواحي في حياة الطير . وآذاننا ليست معدّة للتأثر بجميع ألوان الصوت الصادر من ملايين الطيور . وقد قال الاستاذ جارستانج في وصف هذه اللغة « انها تعرب عن الشعور والانفعال لا عن الاشياء والافكار ، وهي في آخر الامر متصلة بالسلوك وتشتمل على الدعوة والتحية والتحذير والتحدي والتشجيع وقلما تشمل غيرها »

وهذا الذي قالهُ جارستانج لا يشكّ فيهِ احد من مراقبي الطيور . وكما ان الانفعال في الناس تصحبهُ الحركة كذلك يصحب الرقص ورفرفة الاجنحة والتحليق الاعرابَ عن انفعال الطير بالتصويت . ولا يخفى ان وردزورث الشاعر الانكليزي الذي كان يعرف طبائع الطير وصف طبع الشاعر كأنهُ يصف طائراً عند ما قال : « ثم يحفل قلبي بالنبطة فيرقص مع الدخلة »

إن ارتقاء القدرة على التخاطب بالتصويت في الطيور يختلف باختلاف انواعها . ولكن هذه القدرة تمتدّ من نعيق الغراب الى الشدو الموسيقي الصافي في فصيلة السمنة ، ولغة كل نوع لا يفهمها الاّ ذلك النوع

اذن ، هل تغرّد الطيور كما نفهم التغريد؟ هل تغرّد اعراباً عن غبطة الحياة ؟ انها ولا ريب تفعل ذلك. ولكن أصحاب المذهب الجغرافي يصفون تغريدها هذا بأنهُ شبيه بالتغريد sub-song الاّ أنهُ اتيح لي (فيزي فتزجيرالد) ان اراقب الشحرور يفرغ قلبهُ في صياحه وهو جاثم على غصن. ثم شاهدتهُ بعد قليل وهو لا يزال على ذلك الغصن يشدو شدواً رخيماً رضيًّا . ومنذ ذلك اليوم لم يخامرني شك في حقيقة التغريد . اذكر ايها القارىء جيداً ، وتذكر السنونو . او تذكر الصنج Chaffinch جاثماً على سور الحديقة وهو يهزج . او الزرزور على قمة المدخنة . او التفاحي linnet (معجم الحيوان عن حلمي السماع وهو عند عامة المصريين التفاحي والزقيقية وعند عامة السوريين الزقاقية والتفيحة) او السمنة . ليس ثمة ظلٌّ من الشك في ذلك . والواقع اني لا انكر قدرة التغريد على اي طائر . اليس الصرد shrike من ارخم الطير شدواً مع اتا نعودنا ان نكر عليه التغريد

أن اصوات الطير التي يصفها بعضهم بانها « شبيهة بالتغريد » هي التغريد الحقيقي ، المجرّد من قيود التخاطب والمنطقة والجوع والعمل ، مجرّد من كل شيء الاّ من الطرب